ثالثاً المؤرخين لسان واحدٌ على ان معنى الصابئة عبادة النجوم او تعظيم الاجرام السماوية

رابعاً نشأة الصابئة في مهد مجتمع الانسان قبل تفرّقه على وجه الارض وذلك حينما لم يكن يتكلّم الّا لساناً واحداً او ألسنة قليلة ويُستدلّ على ذلك من وحدانيّة اسم الجلالة عند اختلاف الشعوب وتصحيفه وتحريفه ومن اسماء جميع الاصنام القديمة التي تُردُّ الى اصل واحد يقرب من الاصل السامي ويُراد به النور او العلو او مثل هذا المعنى مما تتصف به الاجرام العلويّة مما يدلّ على انهم لمّا جهلوا الله الذي لا يُرى بالابصار ألّهوا تلك الاجرام النيّرة وعبدوها ثم نقلوها الى ذوات مجسّمة اي الى اصنام سمّوها بها. ولله لسان شهيران: « إيل » الساميّة و « دَيف » Dev الموهومة عند العلماء سنسكريتيّة (ستأتي البقيّة)

ما هي المعجزات؟

للاب لويس مخلوف اليسوعي

لله جمال الدين الافغاني اذ صوّب على تلك فئة الطبيعيّين سهام طعن وتفنيد لم تخطئ لعمرك مراميها فقال: « سعوا كل السعي في انكار العالم الاعلى وطمس كل نور عقلي يستنير الحكيم بسنائه في الاهتداء الى ما فوق الطبيعة. حصروا الكائن بل الممكن في المحسوسات المنظورات ولذا نفوا حدوث المعجزات بل نفوا امكانيّتها علماً منهم بان المرء ان سلّم بالمعجزات وما فيها من قوة البرهان فلم يبق لهُ وجه للتشكك في ابر الدين وما يتزلهُ ربك من الوحي على العالمين »

سبق لي بعض الكلام عن الوحي وإنزاله (المشرق ٢: ١٠٩ و ١٩٨) حيث بيّنتُ انّ تفضّل الله بهِ على عبادهِ لشيء ممكن بل نافع بل لازم من بعض اوجه اللزوم. وهو الذي عدا بي الان الى الخوض في مبحث المعجزات العويص. فانّها من اهمّ واقرب الوسائل في التوصّل الى معرفة انّ ذلك الممكن قد تمّ وأبرز الى حيز الوجود. انّها الخطّة القويمة التي يجب السير عليها ان شئت تحرّ الوحي الحقّ من اضاليل اصحاب

الشعوذة ومزاعم ارباب الاديان الفاسدة. ذلك من تعاليم الكنيسة المعصومة عن الغلط وهو مما ادركهُ الذين اشغلوا الفكرة في المباحث العقليَّة. قال ابن خلدون في مقدمته الشهيرة (طبع المطبعة الادبيَّة ص٨٢): «ومن علاماتهم وقوع الخوارق لهم شاهدةً بصدقهم وهي افعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة وليست من جنس مقدور العباد وانما تقع في غير محلّ قدرتهم»

على ان ارباب القلم قد اكثروا في اقطارنا من التكلُّم عمَّا يجري على ايدي القوم صدقًا او وهمًا او خرقةً من الاعمال الغريبة التي تقتضي ظواهرها قوى فوق ما عهدناهُ في العوامل الطبيعيَّة. فمنهم مثبت ومنهم منكر ومنهم من ينتج عن مقولاتهِ نفيّ حدوث ايّ حادث كان متى خرج عن دائرة الفاعيل الطبيعيَّة فاشار الى ما وراء الماديَّات والمحسوسات

ومن ذا ترى انَّ امر المعجزات لأمر مهمّ يجمل بارباب الصحافة ومزاولي المعارف ألَّا يتهافتون على القول فيهِ عن غير إلمام بصر فيصلوا الى حيث ربَّما لم يقصدوا من النتائج الفاسدة والمفسدة في الدين نفي العمران

ابدأ بالحقيقة الاوليَّة الاصليَّة في هذا الباب ثمَّ منها التخطُّر ان شاء الله الى بعض ما يتشعَّب عنها من المباحث

*

المعجزة لغةً ما عجز البشر ان يأتوا بمثلهِ. والمعجزات من هذا الوجه منتشرة في الكون تجدها حيثما أجلتَ الطرف. كلُّ زهرة طاب لك عرفها وكلُّ دُوَيبَّة تدوسها بالرجل وكل ورقة قامت على الغصون تتهاداها ايدي النسيم انها لمعجزات يقصر الانسان مهما انتهى اليهِ من العلم عن صنع شيء منها بل يعجز عن ادراك النزر القليل من أسرار وجودها

ولا حاجة للتنبيه على انَّ المعجزات في هذا المعنى تخرج عن دائرة بحثنا. تلك وما يضاهيها امورٌ معهودة مألوفة تجري على سُنن معلومة وتسير في توالُدها وتوالُدها وكل أطوارها بمقتضى النظام الذي جعلهُ لها بارئها. والحال ان المعجزات في عُرف اصحاب الكلام وائمة الدين هي من جوهرها ما خالف سنن الطبيعة وجرى على غير النظام المعهود كما سترى

كلُّ قوَّة في الكون فهي متناهية محدودة الَّا الله عزَّ جلالهُ فلا غاية تقف عندها مقدرتهُ ولا حدٌّ يحدّ فعالهُ .

كل مخلوق محدود الجوهر فالقوى فالفاعليَّة: الأذن لا تنظر والعين لا تسمع البهيمة لا تدرك والشجر لا يحسّ والجلمود لا يشعر ولا يبدي حراكًا. ومن المختبرات اليوميَّة ان ما كان عاريًا عن الادراك وحرِّيَّة العمل لا يؤثر ولا يتأثر الَّا تأثيرًا وتأثُّرًا معلومًا معيَّنًا لا يتحوَّل عنهُ. ان طرحت حطبًا في نار فلا بد ان يُحرق ويتفحَّم وان جعلت الماء على منحدر سال وجرى. فهذه الخطة الثابتة المقرَّرة اي تماثل التأثُّر والتأثير عند تماثل العوامل وظروف عملها ذلك ما يدعونهُ النواميس الطبيعيَّة

كلُّ مخلوق محدود الجوهر فالقوى فالفاعليَّة: الانسان يتَّسع المجال امام عقلهِ وتخيلتهِ وارادتهِ اتساعًا نكاد نعجز عن تتبُّع أطواره ووضع حدود لهُ. على انهُ متى باشر الماديَّات واراد الفعل في المحسوسات ففعلهُ محدود محصور في دائرة نواميسها لا يستطيع ان يُحدث فيها اثرًا الَّا بمقتضى ما تجري عليهِ من السُّنن وتنتقل لهُ من العوامل. ويتصل الانسان لعمرك الى الفعال التربية المذهلة: بوسعك ان تحيل الماء وتجعلهُ جمادًا او ان تصيّر الصخور الراسية هبابًا يخفّ عن الهواء فيتصاعد الى أعلى طبقات الفضاء. بوسعك دكُّ الجبال وثلّ الحصون المنيعة. بوسعك ان تحدث كلَّ ما عهدناهُ من غرائب الصناعة والفنون ولكن بشرط ان تستخدم من القوى الطبيعيَّة الباعثة ام الضاغطة ام القاذفة ام الجاذبة الخ ما يكون بهِ الكفاية لإحداث ذلك التأثير الذي رُمتهُ وتلك القوى لم ترد انت على تأثيرها وفاعليَّتها ولم تنقص منها شيئًا بل فعلتَ فعلها الخاصّ وجرت على ما لها من الاحكام والخطط. — بلغ نطاسيُّو الاطبَّاء في تطبيبهم الجسم الانساني غايات قصر عنها السلف وربَّما لم تكن ليخطر لهم امكانها ببال. ولكن هل عهدتَهم تجري الامور كما ارادوا ولمجرَّد كونهم ارادوا. بل انما اتصلوا الى ما اتصلوا اليهِ لازدياد مهارتهم في استعمال القوى الماديَّة وما جانسها. يسهّلون لها ظروف التأثير ويهيّئون لها ما تلقى عليهِ حتى يكون تأثيرها فيهِ افعل وانجع فما ابرأوا جرحًا ولا أزالوا سقمًا الَّا وقد جروا على سنَن الكون المادّي وساروا في استخدام ما فيهِ من العوامل والقوى على ذات الخطط والنواميس التي جعلها لها باريها

اذًا فاعليَّة الانسان محدودة حدًّا راهنًا بالنواميس والقوى الطبيعيَّة

كذا قل عمَّا توسَّط بين الانسان والبارئ في عالم الوجود من الارواح المخلوقة. انها متى ارادت فعلًا في العالم المحسوس استخدمت قوى الاجسام المادّية وجرت على سنَنها واحكامها. ولكن بما انها أسمى من الانسان جوهرًا فهي اسمى منهُ عقلًا فمعرفة بقوى الطبيعة وأسرارها. وعليهِ فالارواح قادرة على افعال تخرق قوى الانسان وربَّما لا يتيسَّر لنا في بعض الاحيان ان ندرك اسبابها ومصادرها. لكن تلك الارواح تعجز في نظر العقل المصيب عن بعض افعال كبعث الميت من قبرهِ وايجاد ما لم يكن موجودًا او اعدام ما اخرجتهُ يد القدير من عدمهِ. تلك اعمال يعجز عنها سوى الخالق

امَّا البارئ جلَّ جلالهُ فهو علَّة الكائنات والجوهرُ الذي لا يحدُّ كمالهُ حدّ والقدرةُ التي لا تعجز عن فعل مفعول. وفعلهُ في الكون لا يقوم دونهُ قائم ولا يعيقهُ عائق ولا يجري بمقتضى احكام ونواميس القوى الطبيعيَّة ومساعدتها. ولا بدع فانَّهُ من صفاتهِ تعالى اللازمة وكمالاتهِ الجوهريَّة ان يكون مستبدًّا بفعل ما شاء وكيف شاء. ولمجرَّد انَّهُ يشاء إن باستخدام ما اوجدهُ في الكون من قوى الطبيعة وإن بمطلق ارادتهِ الفعَّالة. اليس الله هو الذي:

احدث الخلقَ بين كافٍ ونون من يكون المراد حين يقولُ

*

تلك بعض حقائق قامت عليها حجج عقليَّة دامغة. ذكرتها تمهيدًا لتعريف المعجزات تعريفًا راهنًا جامعًا مانعًا. كذلك متى اعتبرنا كيفيَّات فعل الخلوق وما يقف عندهُ من المستطاع فلا يصعب علينا بعدها تمييز ما يمكن صدورهُ عن البشر والارواح ممَّا يستحيل ان يُنسب احداثهُ الَّا للقدرة الالهيَّة اي تمييز ما كان معجزًا ممَّا سواه

اقول اذًا ان المعجزة هي فعل حسيٌّ خارقٌ الهيٌّ

وتوسَّعًا في هذا الحدّ واستنتاجًا لما وراءهُ من الحقائق اذكر ان كل معجز حقيقي يتَّصف بثلاث لا بدَّ منها اعني حيثيَّتهُ الذاتيَّة ومصدرهُ وغايتهُ

ومن هناك خصائص المعجزات الجوهريَّة التي ان انعمت النظر فيها لم يعسر عليك حلّ بعض مشكلات هذا الباب. والَّا لما أمن المرء الضلال والوهم. وها كتب الملحدين مشحونة من الاضاليل والاوهام لانهم أغفلوا هذا الامر او جهلوا معنى المعجزات وحقيقة كنهها عند انتنا:

١ً المعجزة من جوهرها ان تكون امرًا محسوسًا يقع تحت حسّ من الحواسّ فيدركهُ ادراكًا يقينًا. كون الخبز والخمر يستحيل الى جسد الرب ودمهِ حسب العقيدة النصرانيَّة هذا لا غرو من الامور العجيبة التي تفوق بما لا يسع اليراع وصفهُ مستطاع البشر ومستطاع كل مخلوق. لكنَّهُ ولو كان خارقًا واعجب من كلّ ما علمناهُ وامكنَّا تصوّرهُ فلسنا نطلق عليهِ اسم المعجزة ولا ندخلهُ في دائرة الباحث العقلية عن المعجزات. انما المعجزة امرٌ حسيّ وتحوُّل الخبز والخمر الى جسد الرب ودمهِ ليس محسوسًا بل هو فعل الهي لا ندركهُ الَّا بالايمان

كذا لا نطلق في اصطلاحنا اسم المعجزة على النبوءة. ذاك علم الغيب امر يفوق المستطاع البشري ويخرق ادراك الارواح ذاتها. وبين النبوءة والمعجزة تشابه محكم لان تلك كهذه تخرق القوى الطبيعيَّة مصدرها الله وغايتها تمجيد الله ولكن النبوءة — اي تلك استنارة العقل بالانوار العلويَّة تجعلهُ يدرك ما لم يكن ليدركهُ بقواه الطبيعيَّة — ليست في ذاتها مما يُعرض على الحواسّ فتدركهُ. والمراد بهذه الصفة الاولى ألَّا يُدرج في عداد المعجزات الَّا ما سهل على القوم تحقيق وقوعهِ فعلًا لاغراض سنعرضها عليك

٢ً المعجزة من جوهرها ان تكون فعلًا ربَّانيًا. والمراد بذلك اننا لا نعتدّ معجزة الَّا الحادث الذي عرفنا مصدرهُ وادركنا ادراك اليقين من الذي فعلهُ. وهذا ايضًا مما لا ينبغي تركهُ التنبيه عليهِ. لسنا ندرج في سلك المعجزات ما جهلنا علَّتهُ وخفي علينا سرُّهُ. والَّا لوجب القول بان الجانب الاعظم من الحوادث التي تجري على ايدي العلماء في اختباراتهم اليوميَّة لهي من المعجزات. مثلًا: كل جسم بسيط يحدث على صفحات الشبح الشمسي لونًا معلومًا مختصًّا بهِ. هل أنبئت من انبأك عن السبب المسبّب ذلك اللون؟ بعض المحاولات تنتظم ذرَّاتها عند التبلور على شكل معهود وبعضها على شكل آخر. ما السرّ في ذلك وما السبب ؟ جهلناهُ. وكم من الحوادث والظواهر الطبيعيَّة جهلنا اسبابها واستحال علينا تعليلها. تلك وما كان من واديها ما من احد يقول انها معجزات ولو كانت امور جُهلت علَّلها واسبابها. امَّا المعجزة فسببها لا مجهول بل معيَّن مقرَّر معلوم علم اليقين. انهُ الله والله وحدهُ. اذ نتصل بالبرهان الدامغ والادلَّة الساطعة الَّا ان ذلك الحادث الغريب يستحيل حدوثهُ عن غير السبب الاسمى فمصدرهُ فعل ربَّاني وفاعلهُ هو الله لا سواهُ

بعد ان طلب يشوع من الرب الظفر على الاموريين امر الشمس وقد اقتربت من مغيبها وقال لها على مشهد اسرائيل: « يا شمس قفي على جبعون ويا قمر اثبت على وادي ايالون. فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للمغيب مدة يوم كامل » (يشوع ١٠: ١٢—١٤)

وها الخطة العقلية التي يتعين بها الفاعل: ذلك الحادث اما ان تكون علته طبيعية واما ان يكون رب الطبيعة ذاته. والحال ان القوى الطبيعية لا يمكن ان تكون هي تلك العلة ومن اعتقد ان مخاطبة الشمس وأمرها بالوقوف علة كافية لإيقافها فما هو الا مسن فقد الرشد. فما بقي الا ان نقول:

اما ان ذلك المعلول وقوف الشمس في سيرها لا علة له وهو مما يخالف كل معقول وينقض كل الاوائل اذ لا معلول دون علة

واما ان تلك العلة ليست الا الكلمة التي فاه بها يشوع — ولم يكن هناك من قبيل العلل الطبيعية سواها — وهذا ايضاً يهتان كما لا يخفى اذ لا معلول دون علة كافية اذاً ما الفاعل والعلة الا الله

نتيجة القول ان المعجزة ليست ما جُهل سببهُ وعلتهُ. ان سببها معروف وعلتها مقررة: هو مالك الكون ورب الورى سبحانهُ تعالى الذي لا اله غيرهُ

ومن وراء هذه الصفة الثانية ترى البون المهم الشاسع بين ما يعدهُ القوم معجزة القوم عن جهل وما هو كذلك عن يقين. كانوا اذا شاهدوا كسوف الشمس او خسوف القمر تحار البابهم وتسلب عقولهم ويرون في هذا الحادث أغرب الغرائب واعجز المعجزات وما كان اعجابهم الا لجهلهم سبب الكسوف والخسوف. فتلك المستغربات يقل عددها على حد ما تتقلص دياجي النبي والجهل بشروق أنوار العلوم والمعارف. ونحن اذا ادركنا اسباب تلك الظواهر الفلكية فما كان عند الخلف من العجيب المخيف الغريب اصبح عندنا من المفاعيل الطبيعية المنتظرة الحدوث المعهودة الوقوع

اما ما علمتهُ العلم الراهن بالبراهين الثابتة انهُ مما يخرق كل القوى الطبيعية فهو معجزة في حصر المثال قد كان وسيكون عند الخلف كما عند السلف عند العلماء كما عند الجهلاء امرًا لا يمكن نسبتهُ الا لرب الطبيعة: توقف الشمس عن المسير لكلمة قالها انسان ذلك مهما تقدمت العلوم وتناهت اليه المعارف مما لا يمكنك ان تذكر

لهُ سبباً كافياً مقنعاً في نظر العقل المصيب إلم تعترف بفعل او امر ربّاني احدث حدثاً يفوق القوى الطبيعيّة وما تقتضيهِ نواميسها واحكامها

٣ اما حيثيّة المعجزة الثانية فاعلم انّهُ من جوهر المعجزة ألّا تكون إلّا لغاية يُحمد معها ان يجري الله في الكون امراً خارجاً عن مقتضيات النواميس الطبيعيّة التي سنّها هو بحكمتهِ الصمدانيّة وتلك الغاية تعود الى نفع العابد وتمجيد المعبود:

ان وقفت الشمس في كبد السماء فما ذلك الّا ليتمّ لشعب الله النصر على اعداء الله

ان اشفى بطرس الرسول الاعرج من بطن امّهِ فما ذلك الّا ليعرف اليهود ان المسيح هو ابن الله. والحكمة في ذلك ان ما لم تكن تلك الغاية غايتهُ فلا يصدر عن الله. اذ ان الله لمّا كان الخير الاسمى فالغاية القصوى اللازمة وجب ان يكون المراد بكل فعل يفعلهُ تعالى او يأمر بهِ تحقيق تلك الغاية وتمهيد الوسائل لنوالها. هو المبدأ وهو المعاد. منهُ وبهِ الوجود فلهُ واليهِ الوجود وما فيهِ

ومن هنا ترى انهُ اذا حدث في الكون امر غريب يعجز عنهُ البشر ولكن لا الارواح وارتبنا في تعيين مصدره وعلّتهِ وفاعلهِ فيكنّا من اعتبار الغاية المقصودة بذلك الحادث ان نتصل الى بعض العلم وكشف الحجب عمن فعلهُ. فان كان فيهِ ما لا ينطبق على قواعد الحق والخير الراهنة ان كان فيهِ ما يدنّس ذيل الفضيلة او يطرّح بالانسان عن جادّة التدين والتعبّد للمولى جلّ جلالهُ فقل ان ذلك من فعل الارواح الشريرة ولا بدّ. اذ من المحال ان يصدر مثل تلك الفعال عن ملائكة السماء وهم المتقادون لربهم في كلّ ما يبدونهُ في عالمنا من الفعال

قيامٌ على الاقدام عاينَ نحتهُ ... فراعهم من شدّة الخوف تُرعدُ
وسبطٌ صفوفٌ ينظرون قضاءهُ ... يصيخون بالاسماع للوحي رُكّدُ
فهم العباد المصطفون لامرهِ ... ومن دونهِ جندٌ كثيف مجنّدُ ...

ولعلّنا نعود الى هذا في ما يلي

وخلاصةُ ما ورد ان المعجزة من جوهرها ان تكون حادثاً حسيّاً يعرض في الكائنات المحسوسات على غير ما تقتضيهِ نواميس الطبيعة المعهودة — وان يكون مسبّبها البارئ تعالى — وان تكون غايتها خير الانسان او اظهار الكمالات الربّانيّة

ولقد كان في ذكر الصفة الثانية غنًى عن ذكر الصفة الثالثة ولكن صرّحت بها سدًّا لبعض ابواب الريب او المغالطة

*

وهنا محل للنظر في ما بين المعجزات والوحي وبين سنن الطبيعة والعلم من العلاقات.

يقولون ان المعجزات ضد العلم. ويتوهمون ان هذا المبدأ الذي يعتدّونهُ راهنًا ييسّر لهم التمسك ببعض المذاهب التي لا يمكن من تدثّروا بالدين القويم ان يسلّم بها

أفالمعجزات اذًا ضد العلم ؟

وما هو العلم ؟

العلم ادراك الشيء بحقيقته (عن مفردات الراغب) او هو « الاعتقاد الجازم المطابق للواقع » وربّما أُطلق العلم مجازًا على مجموع مسائل واصول كلّيّة تجمعها جهة واحدة كعلم النحو والعروض وعلم الطبيعة

والعلم الذي يجري عليه القول في بحثنا هذا هو لا شك علم الطبيعة اذ لا دخل فيه كما لا يغرب عنك لعلوم جمة كعلوم اللغة والخطابة . . .

اذًا علم الطبيعة هو ادراك الطبيعة بحقائقها وما ذاك الّا تيقن سنّتها ونظامها تيقّنًا يطابق الواقع

فرجع القول اذًا الى هذا: هل بين المعجزات ونظام الطبيعة تخالف يحقّ معها القول ان المعجزات ضد العلم

كل الجواهر فالعوامل الطبيعيّة تسير في عملها كما سبق لنا على خطط ثابتة وبحسب كيفيات لازمة لا تحيد عنها في شيء فيكون بين السابق منها واللاحق بين المؤثر والمتأثر نسب وعلاقات اي سنن ونظام يقوم بتحديدها وتقريرها وتعريفها علم الطبيعة على اقسامه وتشعّباته الى علم الهيئة وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم الكيميا وعلم الاثقال الخ . وعلى هذا النسق ندرك ادراكًا أدقّ ذلك النظام الموجود في الطبيعة على أنواعه

قلت على أنواعه : اذ لا يخفى على متبصّر اننا حسب الجهة التي نوجّه اليها لحظنا نرى ان في الكون نظامًا خاصًّا ونظامًا عامًّا وفوقهما نظامًا اعمّ واسمى

النظام الخاصّ هو الذي عُهد في الاشياء مفردة بصرف النظر عن سواها . الحجر

من طبعهِ ونظامهِ ان ينحطَّ الى الاسافل. الجسم متى فارقتهُ النفس انحلَّت قواه وانقرطت ذراتهُ وعاد تراباً. الماء يسيل على منحدرهِ. القطب الكهربائي يجذب السلبيَّ ان كان ايجابياً والايجابيَّ اذا كان سلبياً. وهلمَّ جرًّا

النظام العامّ هو ذاك النظام البهي العجيب الذي تتأملهُ عينك اذ ترفع لحظك الى القبة الزرقاء او ترسلهُ على متَّسع البحار ومخضرّ الربوع وشامخ الجبال ومزدهر الاكام. ذاك النظام الناتج عن فعل وانفعال خلائق الله كلها بعضها في بعض ولبعض بمقتضى ما لها من القوى والعوامل والسنن الخاصَّة

اما النظام الاعمّ الاسمى فهو العلاقة اللازمة الموجودة بين تلك المخلوقات كلها مفردةً ومجملةً في فعلها وانفعالها وبين البارئ تعالى الذي برأها ويدبرها بحكمة ويوجه فاعليَّتها الى ما قصد بها من تمجيد فاطرها ومالكها فتكون منقادةً لاوامرهِ في كلّ حال. ومن نظر في امر الطبيعة نظراً محكماً لا يمكنهُ اغفال هذا النظام لانهُ ناتج عن جوهر الطبيعة ذاتهِ ومن اغفل جوهريَّات الشيء لم يُحطْ بهِ علماً

وان الطبيعة تجري مجراها حسب ما ينتج عن ذلك النظام الخاصّ والعام والاسمى من الفاعيل

اذًا علم الطبيعة الصادق — اللهمَّ ان لم تحصرهُ في علم خاصّ كعلم الطب او علم الكيميا — ان تنظر الى ذلك النظام الطبيعيّ في اطوارهِ الثلاثة. وان لم تفعل كان علماً ناقصاً اذ لا يكون مطابقاً الواقع من كل وجه

وبعد هذا التمهيد يسهل علينا ان نرى الرأي الصائب في علاقات المعجزات مع الطبيعة ونظامها ومجرى سننها ثمَّ مع عالم الطبيعة ذاته

المعجزة كما قلنا تخرق قوى كل مخلوق. اي لو كانت العوامل الطبيعيَّة تُركت تجري مجراها لما كان حصل ما احدثتهُ المعجزة او لكان حصل خلافهُ. فالمعجزة اذًا تخالف مجرى الطبيعة ونظامها

ولكن اي مخالفة واي نظام من تلك الثلاثة ؟

انها تخالف نظام الطبيعة. الماء من طبعهِ ان يسيل والمعجزة التي اجراها الرب على وليّهِ جعلت المياه تصعد وتستقر الى منابعها. لكن تلك المخالفة هي مخالفة الشذوذ عن القياس لا إلغاء النظام. على حدّ ما يحصل اذ يخالف ولي الامر شريعة من الشرائع لمآرب يقتضي

احداً من بعض التوابع الشرعيَّة او يأمر امرًا يخرج عن حكم الدستور المعمول به في الدولة. والشرع باقٍ لم يُلغَ ولم يبطل منهُ. كذا في المعجزات

هل تخالف النظام العام؟ كلَّا ثمَّ كلَّا

النظام العام قاعدتهُ العظمى وسنَّتهُ الاولى والحكم المعروف المقرَّر الذي تسير عليهِ العوامل كلها وبمقتضاهُ تجري الانفعالات كلها هو هذا: المفعول والتأثير الناتج عن فعل الفاعل الاضعف من جوهرهِ ولوازمهِ ان يعيقهُ او يغيّرهُ عن وضعهِ فعل الفاعل الأقوى المعاكس متى كان. وهو المبدأ الذي نعمل بهِ ونختبرهُ في كلّ الاحوال. فلمَّا تحصل معجزة في الكون لا يحدث ادنى مخالفة للنظام العام لان حينئذٍ قوةً اعظم وفاعلًا اقوى هو الله ذاتهُ يكون قد عاق عن العمل فاعلًا ادنى واضعف اعني قوى طبيعيَّة مخلوقة او اخرجها عن عملها وتأثيرها المعهود. فلا يكون فعل الله في ذلك باكثر اخلال بالنظام العام من فعل القوى الحيويَّة بقوى الجماد او القوى الحيوانيَّة بقوى النبات

امَّا اذا اعتبرنا النظام الاعم والاسمى فان تجد في إحداث المعجزات الَّا ما يظهر سلطة العلي وخضوع الكون لارادتهِ الربَّانيَّة. وهذا ليس فيهِ الَّا اجلى تأييد وارضح دليل على ذلك النظام اللازم القائم على العلاقات الموجودة ولا بدَّ بين الخالق والمخلوق:

سل عنهُ دارات الوجود فانها تدعوهُ معبودًا لهُ ربًّا

تجري الرياح على اختلاف هبوبها عن اذنهِ والفُلك والامواهُ

وعليهِ فان تبصَّرتَ في ذلك كلهِ ونظرت الى نظام الكون كلهِ في كل أطوارهِ واحكامهِ ترى ان المعجزات لا تضادُّ بينها والطبيعة وعالم الطبيعة وانما تخالفها في القليل وباعتبار جهة تكاد يحقّ ان يسلمها الناظر. والاجدر ان يُقال انها بالعكس تنطبق على نظام الكون كل الانطباق

نبذة من كتاب مبادئ اللغة

لابي عبد الله محمَّد الاسكافي

هذه النبذة اقتطفها حضرة الشيخ محمود افندي شكري الآلوسي من كتاب قديم عزيز الوجود صنَّفهُ ابو عبد الله محمَّد بن عبد الله الخطيب الاسكافي المتوفَّى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م). والكتاب المذكور من انفس كتب اللغة يحتوي على نحو ستين بابًا في مواضيع شتَّى اوَّلها باب ذكر السماء والكواكب ثمَّ باب سماء البروج والازمنة ثمَّ باب الليل والنهار ثمَّ باب صفة الحرّ والبرد وباب